محاضرة حول وسائل الإعلام و الاتصال التقليدية في الجزائر خلال العهد العثماني (1516- 1830):

إن الحديث عن البعد الثقافي و كذا الاتصالي و جب علينا أن نتطرق إلى تلك المؤسسات التي أظهرت الجانب الثقافي للجزائريين إبان العهد العثماني و سنحاول التطرق إلى أهمها، و حسب أبو قاسم سعد الله لا تكاد المؤسسات الثقافية في العهد العثماني تخرج عن المسجد و المدرسة و الزاوية و المكتبة و معظم هذه المؤسسات كانت للتعليم أكثر ما كانت للثقافة .

إذن فان هذه المؤسسات المذكورة أنفا هي عبارة عن مراكز علمية و ثقافية ساهمت بشكل كبير في تلقين مختلف العلوم للشعب الجزائري و في زرع الوعي و إخراجهم من ظلمات الجهل و الأمية إلى طريق النور و العلم و تمثلت هذه المراكز في:

أ- الزوايا:

لم يقتصر دورها على أداء الشعائر الدينية فحسب و إنما في تعليم القراءة و الكتابة، و ما ميز تلك الفترة هو تحرر التعليم من سيطرة الحكام العثمانيين، بالتالي فالزوايا في الجزائر تاريخ قديم و دور كبير لم يقتصر على تعليم القرآن و العلم فحسب، فهذا النوع من دور العبادة التي هي في الآن نفسه مراكز علمية، نجدها بالإضافة إلى كونها تتكفل بتعليم الطلبة أيضا باطعاهم و إيوائهم، إن من أهم الزوايا التي انتشرت انتشارا كبيرا في ربوع الجزائر هي الزوايا الرحمانية نسبة إلى العالم الجزائري الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشوطي الإدريسي الحسن الأزهرى المولود في قرية بوعلاوة من قبيلة آيت إسماعيل بجبال جرجرة حوالي 1126 هـ .

و هنا لا بد من التذكير بما قام به شيوخ الطريقة الرحمانية و رجال زواياها في مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر و التصدي لمحاربهه بكل الوسائل و في مقدمتها تعبئة الجماهير و توعيتها، و هي حقيقة تاريخية لا بد من التأكيد عليها .

ب- المساجد:

وقع اختيارنا للمسجد كثاني المراكز العلمية و الثقافية بعد الزوايا مباشرة لأنهما يشتركان في الكثير من الخصائص، و لأنه أيضا كثيرا ما يختلط على الباحث اسم الجامع و المسجد و الزاوية، ذلك ان بعض الجوامع و المساجد كانت تابعة لزوايا معينة، و التداخل ليس في الاسم فقط بل في الوظيفة أيضا ، كما ان حجم هذه المؤسسات له دخل في تحديد وظائفها، فالجامع اصطلاحا أكبر حجما من المسجد، غير ان بعض الباحثين يذكرون المساجد فقط ثم يفصلون كبيرها و صغيرها .

و باختصار يمكن القول أن المسجد كأحد المراكز العلمية، نظرا لما يقوم به أهم موظفيه و الوظائف التي يشغلونها داخل المسجد، و على كل حال فإن أغلب الجوامع كان له من الموظفين الوكيل و الخطيب و الإمام (و أحيانا يجمع الخطيب الإمامة أيضا، و المدرس و المؤذن... الخ).

ج- المدارس:

و هي أحد المراكز العلمية التي كانت تؤدي دور التعليم و التنقيف و التوعية كما هو الحال في المساجد و الزوايا، غير انها لم تكن مثلها منتشرة بكثرة خاصة الجامعات، و في هذا الشأن يقول أبو القاسم سعد الله الواقع هو أنه لم يكن في الجزائر كلها جامعة واحدة بالمعنى المتعارف عليه بل خلت الجزائر العثمانية من مؤسسة للتعليم العالي .

أما اذا جئنا للحديث عن المدارس الابتدائية مثلا فقد كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن و لا قرية من القرى في الريف ، بل إنها كانت تنتشر بين اهل البادية و الجبال النائية، و هذا ما جعل جميع

الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهون من كثرة المدارس بها و انتشار التعليم و ندرة الأمية بين السكان.

د-المكتبات و الكتاب:

وجود المكتبات و الكتب بكثرة في أي مجتمع دليل قاطع على أن ذلك المجتمع مثقف و محب للمطالعة و العلم، و نقصانها أو ندرتها دليل على العكس تماما، اما عن الكتاب فهو أكثر مراكز التعليم انتشارا في العهد العثماني، إذ أقبل عليه الناس في مختلف البلدان التي خضعت للحكم العثماني.

أما عن الدروس التي يتلقاها الأطفال فهي مبادئ القراءة و الكتابة و الحساب و حفظ القرآن الكريم كله أو أجزاء منه و بعض مبادئ الفقه، و رغم صعوبة الظروف فقد كان الإقبال على طلب العلم و التعلم أمر لا شك فيه عند الجزائريين و هو ما يعكس بالضرورة درجة الوعي و الثقافة التي وصل إليها الشعب الجزائري إبان الحكم العثماني.

هذا عن الكتاب، أما فيما يخص المكتبات فيرى أبو القاسم سعد الله أن الجزائر خلال العهد العثماني كانت في طليعة البلدان الكثيرة الكتب و المكتبات، و قد شهد على وفرة المكتبات فيها حتى خصوم العثمانيين كالفرنسيين، و كانت الكتب في الجزائر تنتج محليا عن طريق التأليف، النسخ ، أو تجلب من الخارج من الأندلس و مصر و اسطنبول و الحجاز.